

حجاجية البلاغة

الكناية أنموذجا

الدكتور: عدة قادة

جامعة تيارت - الجزائر

تدور أهم معاني البلاغة لغة حول الانتهاء والوصول، فقد جاء في لسان العرب في معنى مادة بلغ: "بَلَغَ الشَّيْءُ يَبْلُغُ بُلُوغًا وَبَلَاغًا: وَصَلَ وَانْتَهَى"^(١)، وقد اتخذ كثير من علماء البلاغة هذا المعنى مطية لتعريف البلاغة اصطلاحاً، وكان من أوائلهم "علي بن عيسى الرماني" (ت 386هـ) حيث ذهب إلى أن البلاغة هي "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"^(٢)، وتبعه في ذلك "أبو هلال العسكري" (ت 395هـ) حين علّل لتسميتها بهذا المصطلح فقال: "سميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"^(٣).

إن مضمون هذا المفهوم المنطوي على أهمية إيصال المعنى وتبليغه إلى المتلقي هو ما جعل من "أهم اهتمامات البلاغة العربية الإيصال والإبلاغ، وتتناول خلال ذلك كثيراً من شروط هذا الاتصال وظروف أدائه، من أحوال مختلفة للمتكلمين إلى كلّ ما يرتبط بالمعنى وملايساته، إلى معرفة أقدار السامعين ومنازلهم"^(٤).

ويشهد بهذه الحقيقة ما يتّخذ البليغ من فنيات لغوية تقوم أساساً على خرق قوانين اللغة المتواضع عليها؛ لأنها لا تفي بتأدية الغرض من عملية التواصل وهو إبلاغ المعنى والوصول به إلى المتلقي والتأثير فيه بما يحقق الغاية المرجوة التي يبتغيها المرسل، ولذلك فإنّ كل الأشكال البلاغية وصورها المختلفة والتي تعبّر عنها المباحث البلاغية المنطوية تحت علوم البلاغة الثلاثة تقوم خادمة لتحقيق هذه الغاية إذ لكل شكل من هذه الأشكال المقام الذي يليق به ويطابقه.

وقد عبّر المتأخرون عن هذه الحقيقة وهم يعرفون البلاغة بكونها " بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقّها " ⁽⁵⁾، فالحرص على توفية خواص التراكيب حقّها ليس إلا لبلوغ المنتهى في تأدية المعنى وإيصاله إلى المتلقي بحسب المقام الذي يقتضيه، " فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنة يباين مقام التعزية، وكذا مقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجدّ يباين مقام الهزل " ⁽⁶⁾ ولعل هذا ما دفع بالخطيب القزويني (ت 739 هـ) إلى التركيز على أهمية " مطابقة الكلام لمقتضى الحال " في حده للبلاغة وقد نبّه إلى أنّ هذا المقتضى مختلف ومتفاوت: " فمقام كل من التنكير، والإطلاق، والتقديم، والذكر، يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام خلافه، وكذا خطاب الذكيّ مع خطاب الغنيّ، ولكل كلمة مع صاحبها مقام، وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدمها " ⁽⁷⁾، فجعل قيمة الكلام من مدى مطابقته للمقام الذي يلقي فيه .

إنّ الأشكال البلاغية المختلفة ليست في حقيقة أمرها إلا صورا لمقامات وأغراض شتى غير محدودة ولا معدودة، وقد أقرّ هذه الحقيقة " عبد القاهر الجرجاني " (ت 471 هـ) حينما نبّه إلى أنّ بنية الخطاب تختلف باختلاف أغراضه، وأوضح ذلك قائلا: " اعلم أن ليس المزية بواجبة لها في أنفسها، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تريد، والغرض الذي تؤم " ⁽⁸⁾، وقد أشار إلى هذا المعنى " ابن سنان الخفاجي " (ت 466 هـ) حين قال: " وأما الغرض فبحسب الكلام المؤلف، فإن كان مدحا كان الغرض به قولاً ينبئ عن عظم حال المدوح، وإن كان هجوا فبالضد " ⁽⁹⁾.

ولعلنا نستخلص من هذا التمهيد أنّ لكلّ شكل بلاغي غرضاً أو وظيفة مخصوصة لا يؤديها إلا ضمن مقامات مخصوصة، ليتحقق شرط المطابقة بين الكلام ومقتضاه، فتتحقق

بذلك غاية استمالة المتلقي لما يعرض عليه فيقع التأثير في عقله ووجدانه، مما يعني أنّ ممارسة البلاغة أو تأليف الكلام البليغ عملية لغوية وجدانية وعقلية تراعي ظروف الخطاب وملايساته المختلفة لكي تصل إلى هذه الدرجة من الإقناع والتأثير الذي يطلق عليه الحجاج وهو "يهتمُّ بدراسة التقنيات البيانية التي تسمح بإذعان المتلقي، وغرضه دغدغة العواطف والإثارة والأهواء، استنفاراً للسامعين" ⁽¹⁰⁾، مما يعني أنّ حقيقة البلاغة حجاجية أو كما ذهب إلى ذلك "بريلمان" حين اعتبر أنّ البلاغة مطابقة لنظرية الحجاج؛ وجعلها محصورة فيه ⁽¹¹⁾، وهذا يعني أنّ كلّ شكل بلاغي ينطوي على قيمة حجاجية .

ولعل الصورة هي أحد أهمّ الأشكال البلاغية التي تظهر فيها الحجاجية جليّة واضحة لأنّها "طريقة خاصة من طرق التعبير، أو وجه من أوجه الدلالة، تنحصر أهميتها فيما تحدّثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير" ⁽¹²⁾، بل هي مصدر الفضل والحسن عند البلاغيين يقول عبد القاهر: "ومعلومٌ أنّ سبيلَ الكلامِ سبيلُ التصويرِ والصياغةِ وأنّ سبيلَ المعنى الذي يعبرُ عنه سبيلُ الشيء الذي يقعُ التصويرُ والصَّوْغُ فيه كالفضةِ والذهبِ يصاغُ منهما خاتمٌ أو سوارٌ، فكما أنّ محلاً إذا أنت أردتَ النظرَ في صوغِ الخاتمِ وفي جودة العملِ وردائه أن تنظرَ إلى الفضةِ الحاملةِ تلكَ الصورةِ أو الذهبِ الذي وقعَ فيه العملُ وتلكَ الصنعةُ كذلك محالٌ إذا أردتَ أن تعرفَ مكانَ الفضلِ والمزيةِ في الكلامِ أن تنظرَ في مجرّد معناه" ⁽¹³⁾ .

ولكي نتبيّن هذه الخصوصية في التعبير والتأثير أو لنقل حجاجية الصورة فإنّنا نعلق حديثنا بالصورة الكنائية التي رأى فيها أعلام البلاغة خصوصية أخرى لانبنائها على ترك التصريح الذي جعل فيه "عبد القاهر الجرجاني" مزية وحسناً لا يكونان إذا تمّ التعبير عن المعنى بصريح اللفظ ⁽¹⁴⁾ .

ويمكننا أن نستجلي مظاهر الحجاجية في الكناية في التراث البلاغي العربي من خلال ما قدّمه هذا العلم من تنظير وتطبيق حول ماهيتها وطريقة دلالتها على المعنى، وأول ما يطالعنا في تعريفها قوله: " والمراد بالكناية هاهنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: هو طويل النجاد يريدون طويل القامة، وكثير رماد القدر يعنون كثير القرى، وفي المرأة: نؤوم الضحى والمراد أنها مترفة مخدومة" (15).

فالكناية بهذا الاعتبار طريقة من طرق إثبات المعنى، ودليل من أدلته وهو يفسر ذلك من خلال الأمثلة التي أوردها بيانا لتعريف الكناية فيقول: " ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم: هو كثير رماد القدر وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة لم تعرف ذلك من اللفظ ولكنك عرفت أنه رجعت إلى نفسك فقلت: إنه كلام قد جاء عنهم في المدح ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلّوا بكثرة الرماد على أنه تُنصب له القدور الكثيرة ويطبخ فيها للقرى والضيافة وذلك لأنه إذا كثر الطبخ في القدور كثر إحراق الحطب تحته. وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة. وهكذا السبيل في كل ما كان كناية" (16).

وهكذا يتبين أن اكتشاف المعنى والوصول إليه في التعبير الكنائي لا يتم إلا عبر مراحل ووفق سلسلة من العمليات الذهنية الاستدلالية بالتلطف والنظر والتأويل دون إغفال السياق الذي ورد فيه التعبير، إذ به يستطيع المتلقي استبعاد المعنى الحقيقي من القصديّة ويتوجّه بفعل هذه العوامل مجموعة إلى أن المقصود هو المعنى المكنى عنه وهو المعنى المجازي، وهو يوضح ذلك أكثر حينما يبيّن الطريق الذي يسلكه السامع (المتلقي) للوصول إلى المعنى المراد الدلالة عليه ففي الكناية لا نفيذ الغرض من مجرد اللفظ: " ولكن يدلّ اللفظ

على معناه الذي يوجبُهُ ظاهرُهُ ثم يَعْقُلُ السامعُ من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنًى ثانياً هو غرضُك" (17) .

وهذا يعني أن المتلقي يفتقر في إدراك المعنى الكنائي إلى عملية عقلية استدلالية توجّهه إلى المعنى المقصود ولذلك نفى عبد القاهر أن تكون دلالة الكناية من جهة اللفظ وجعلها من طريق المعقول يقول في ذلك: " وإذا نظرتَ إليها - الكناية - وجدتَ حقيقتَها ومحصولَ أمرِها أنها إثباتٌ لمعنى أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دونَ طريق اللفظ " (18)، فالمعنى لا يذكر باللفظ الموضوع له في أصل اللغة ولكن بمعنى من شأنه أن يردفه ويتبعه مثلهما قال عبد القاهر أي يقتضيه ويلزمه ولعل ذلك ما دفع "القزويني" وهو الذي اطلع على ميراث "عبد القاهر" ليعرف الكناية على أنّها "لفظ أريد به لازم معناه" (19).

وقد كان الاعتماد على ما سمّاه "عبد القاهر" بعلاقة الردف أو التابع أو ما اصطلح عليه "السكاكي" و"القزويني" باللازم فيما بعد؛ لأنّ المعنى لا يفهم من اللفظ وحده، وبواسطة الانتقال يصبح الملزوم المتقل إليه من اللازم كالشيء المدعى بثبوت المصاحب للبيئة والدليل، بخلاف الحقيقة والتصريح فإنّ كلا منهما دعوى مجردة، فإذا قلت: فلان كثير الرماد فكأنك قلت: فلان كريم؛ لأنّ كثير الرماد، أي بدلالة كثرة الرماد" (20).

ومن خلال هذا يبدو لنا أنّ جوهر مفهوم الكناية وطريقة دلالتها على المعنى مبنية على الغاية المحجاجة، إذ إن المتكلم يلجأ إليها لا ليحقق التواصل في مستواه الأول وهو نقل المعلومة بل ليؤكد ويبرر صدقية ما يلقيه إلى المتلقي، ولذلك اعتبرت الكناية في البلاغة العربية إثباتاً للمعنى بدليله، وتعبيراً عنه مرفوقاً ببيئته .

وإذا كان لكل أسلوب بلاغي مقاماته التي يختص بها في أداء المعاني، فإنّ للكناية مقاماتها الخاصة التي لا يستطيع أسلوب آخر أن يؤدي أدائها فيها، فمن المقامات ما يكون

حجاجة البلاغة، الكناية أنموذجاً

التصريح فيها غير لائق ولذلك يقتضي العدول إلى الكناية؛ لأنّ العلاقات الاجتماعية هي التي تفرض هذا العدول ليتمّ الإبلاغ في أحسن صورة فيقع التأثير والإقناع، وتتحقق الحجاجة التي يقتضيها التواصل .

هذا وإن كان هناك من رأى من المحدثين أن الكناية " تمثل الجانب المقموع من اللغة وهي دليل الصراع بين الطبيعة والثقافة، أي بين الدلالة كما يجب أن تكون بالاصطلاح وبين ما تقتضيه المواصفات الحافة باللغة " ⁽²¹⁾ ، فإن هذا لا يمنع وفي المقابل أنّ هذه الوظائف الكنائية تعبّر عمّا في هذا الأسلوب من صبغة تودّدية وترفّق في التواصل والمخاطبة، يمكن طيها إجمالاً تحت عنوان التلطف والذي يعني: " إبدال الكلمة الحادة بكلمة أقل حدة وأكثر قبولاً " ⁽²²⁾ ، وهذا المفهوم بمختلف معانيه اللغوية والتي تدور حول الوصول إلى الغاية برفق ⁽²³⁾ يستغرق مفهوم الكناية بمختلف وظائفها، فمن خلاله نقرأ السّر والخفاء، والتحسين والتجميل، وترك المستفحش والمستفحش من الألفاظ، والتعظيم والتبجيل والإكرام وغيرها من المعاني .

ولهذا كلّه فالكناية " لها موقع في البلاغة عظيم، فإنّها تفيد الألفاظ جمالاً وتكسب المعاني ديباجة وكمالاً، وتحركّ النفوس إلى عملها وتدعو القلوب إلى فهمها " ⁽²⁴⁾ ، وفي هذا إشارة إلى أنها في الموقف الذي تلقى فيه أليق بالاستعمال لما تحقّقه من الفنية والجمال، وفي الوقت ذاته لما فيها من الحجّة والبرهان لأنّ غيرها من الأشكال البلاغية تعجز عن ذلك .

إنّ الصورة الكنائية بهذا تصوّر يمكن اعتبارها من أهمّ النماذج والأشكال البلاغية التي تتضح فيها الحجاجة بصورة جليّة وواضحة فهي توظّف ليكون التعبير بها حجة على صدق المعنى، ودليل من أدلة إثباته للمتلقّي، مما يزيده ترسيخاً في الذهن، وتأثيراً في النفس .

مراجع البحث وإحالاته:

- 1- ابن منظور، لسان العرب: مادة بلغ.
- 2- الرماني، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حققها وعلق عليها محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، (د، ت)، ص: 75-76.
- 3- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق محمد علي البيجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1371هـ، 1952م، ص: 6.
- 4- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009، ص- 162.
- 5- السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلّق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1407هـ، 1987م، ص: 415-416.
- 6- المصدر السابق، ص: 168.
- 7- الخطيب القزويني، التلخيص في علم البلاغة، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1904م، ص: 34-35.
- 8- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، مكتبة الإيمان، المنصورة، القاهرة، (د، ط)، ص: 106.
- 9- ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1982م، ص: 94.
- 10- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص: 107.
- 11- ينظر: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد سالم ولد محمد الأمين، مجلة عالم الفكر، ص: 57.
- 12- جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1992م، ص: 323.

- 13- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004، ص: 254 - 255
- 14- ينظر: المصدر نفسه، ص: 444 .
- 15- المصدر السابق: 66 .
- 16- المصدر نفسه، ص: 430
- 17- نفسه، ص: 262
- 18- نفسه، ص: 430
- 19- القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ص: 337.
- 20- نائلة قاسم لمفون، الكناية في ضوء التفكير الرمزي، رسالة ماجستير (مخطوطة)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص: 83 .
- 21- أحمد محمد ويس، الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002م، ص: 160 .
- 22- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، 1982م، ص: 240
- 23- ينظر مادة "الطف"، تهذيب اللغة تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001م، ص: 235 / 13 .
- 24- العلوي، الطراز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1982م، ج: 1، ص: 335 .